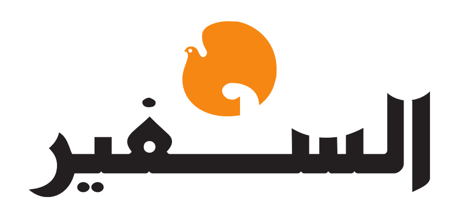
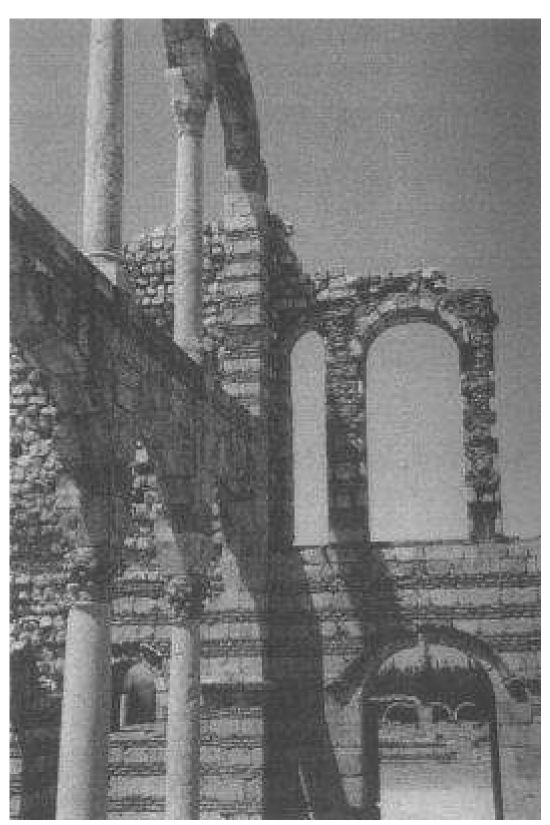


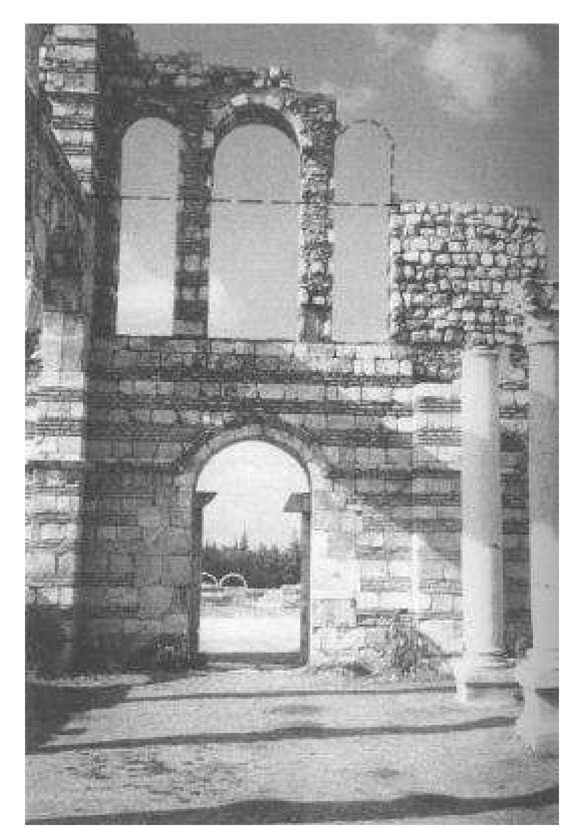
دراسة تثبت وجود أخطاء في ترميم القصر الكبير في عنجر
اكتشافات جديدة تؤكد ضرورة المزيد من الأبحاث



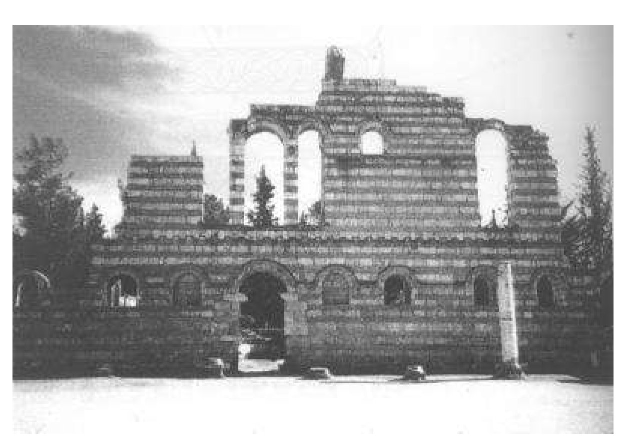
نجم
اسئلة
(حسن
عمار



هل يمكن ان يكون السقف فوق القناطر العليا؟



صورة تظهر التناقض في حال وجود سقف للطابق الاول



الواجهة الشمالية للقصر وتبدو نافذتان مقفلتان

المؤلف: هواري زهير
التاريخ: 16-08-2002
رقم العدد:9276

عندما دخل المهندس نبيل نجم، الى عنجر وتفحص آثارها، شعر بوجود خطأ ما لم يتبينه بداية. كان لديه شعور بأن عملية الترميم التي نفذها المهندس كاليان في العام 1961، تحتاج الى تصحيح. جال في الموقع وتوقف طويلا عند مدخل القصر الكبير في المدينة. فور عودته الى بيروت، راح يفتش في المكتبات عما يكون مكتوبا ومنشورا عن هذا الموقع الذي لا مثيل له، لا في لبنان ولا في سوريا ولا حتى في فلسطين.. أي في الأماكن التي كانت مراكز اعمار للخلفاء الأمويين. المؤسف انه لم يعثر سوى على مقالين يبلغان من العمر حوالى اربعين عاما. أي انهما يعودان الى مطالع الستينات. منذ ذلك الوقت اطمأن اللبنانيون الى »معلوماتهم الوافرة« عن هذا الموقع الأثري. لا دراسات، لا ابحاث ولا نقاش. قد يكون كليان خلال تلك السنوات الممتدة بين تاريخ الترميم قد قضى نحبه، أما اللبنانيون الذين رأوا في عمله تحفة فقد تصرفوا حيالها وكأن لا يأتيها الباطل من أي جانب، وبالطبع لا سؤال ولا جواب. يحمل نجم دبلومين في الدراسات العليا احدهما في الهندسة المعمارية وثانيهما في الفنون والآثار، كما يعمل حاليا على اعداد دبلوم ثالث دراسات معمقة في هندسة المعابد الدينية. إذن يدمج نجم عبر تخصصيه بين الهندسة والآثار وهو دمج مفيد في رؤية اثر مثل عنجر وسواه. خصوصا وانه الآن يعمل على دبلوم ثالث يتعلق بالهندسة في المعابد الدينية. الدبلومان الأولان حصل عليهما من جامعة الكسليك، وفي هذه الجامعة تولى التدريس خلال عشرة أعوام امتدت بين الاعوام 1991 2001. الخطأ الذي شعر نجم بوجوده دفعه الى العودة الى عنجر، لا سيما وقد ترافق ذلك مع اعلان مؤسسة عصام فارس وجمعية بيروت للتراث عن جائزة تقدم هذا العام لطلاب يدرسون هذه المدينة الأموية العريقة. ودخل نجم في المنافسة، ونال الجائزة الأولى، لكنه عاد الى عنجر ليلتقي فيها ببعثة أثرية المانية تعمل منذ أربع سنوات خلال أشهر الصيف. بدأ العمل منفردا، كان يحاول البحث عن الخطأ الذي حدس بوقوعه، بعد ان باتت الكثير من المعلومات لديه، لا سيما دراسة العالم الفرنسي سوفاجيه عن عنجر ودراسة الأمير موريس شهاب أيضا. وبالطبع قرأ كثيرا عن القصور الأموية في البادية والمدن التي انشأوها وهندستها وتاريخها. بعد تكرار أيام عمل في عنجر تكشفت أمام نجم أمور كثيرة بحاجة الى تصحيح او إعادة تقديم على الأقل. إذ كما يقول ان بعلبك ليست قلعة فقط، بل

هي مدينة ومعابد و... ومثلها مثل عنجر التي هي مدينة ذات تخطيط وهندسة. تحوي اكثر من قصر وطرقات ومسجد ومحال تجارية و... هذا في الاجمال.. المطلوب هو أكثر من ذلك، هو الدخول في التفاصيل لتبيان جمالية الآثر التاريخي، سواء كان في بعلبك او عنجر او غيره. إذن المسألة لم تعد مجرد مدخل القصر الكبير، كما يقال، فالموضوع أوسع وأكثر دقة. علما ان عنجر التي بناها الوليد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة بين الاعوام 705 715، وعرف عهده بعهد البناء كما يصفه المسعودي، قد استعان في بنائه المسجد الأموي بعمال محليين وفنيين بيزنطيين.. لكنه هنا وان كان قد افاد من عناصر معمارية سابقة الا انه بنى مدينة أموية عربية بامتياز. خلال العمل، الذي انتهى الى دراسة موثقة ومصورة تبلغ 92 صفحة تكشفت لنجم الكثير من الأمور التي تتطلب اعادة النظر بها، وذلك كله بهدف اجلاء هذا الموقع الهام بعناصره كافة، وليس من خلال الترميم الاجمالي كما فعل المهندس كاليان في العام 1960. أبرز ما توصل اليه كان على صعيد عملية الترميم او الهندسة او الزخرفة الاصلية. وخرج بخلاصة مفادها انه لا بد من إعادة نظر بكل ما نملكه عن عنجر من ثقافة، باعتبار ان الكثير منها خاطئ، كما انها وهنا الأهم لا تقدمه كمعلم أثري يملك أهمية استثنائية، باعتباره المدينة الأموية الأولى، وفي الدراسة التي وضعها بعد زيارات وقياسات وتدقيقات وعلى ضوء ما جمعه من معلومات تبين له ان المدينة المذكورة، كانت أكبر وأوسع من مجرد قصور للوليد بن عبد الملك. إذ ان المدينة هي عبارة عن مستطيل طوله 370 مترا وعرضه 310 امتار واتجاهاته مطابقة للجهات الأربع، يحيط بها سور تتخلله ابراج دفاعية نصف دائرية. وعلو السور كان يبلغ حوالى السبعة أمتار وكان على رأس الابراج مسننات دفاعية. بالطبع يتخلل المدينة طريقان يتجهان شرقا وغربا وشمالا وجنوبا. وهناك في المدينة قصران: الكبير والصغير، الجامع، الحمام الكبير والصغير، آثار كنيسة و600 محل تجاري تتعاطى تجارتي الجملة والتجزئة. الكثير من هذا معروف، باعتبار ان عنجر كانت نقطة تقاطع بين شمال وجنوب سوريا الطبيعية وبين الساحل والداخل، إذ المسافة التي تبعدها عن المدن الساحلية تقارب ما يبعدها عن دمشق عاصمة الأمويين، لكن اين الخطأ الذي حدس به نجم؟. بالطبع هناك جملة اخطاء، الابرز فيها عملية الترميم التي تعرض لها القصر الكبير. ويتضح من دراسة الأمير موريس شهاب ان سقف القاعة البازيلكية يعلو طابقين، أي حوالى 14 مترا. وهي الصورة التي وضعت على البطاقات السياحية، والتي تلفت المشاهد. لكن هنا تثور جملة أسئلة ابسطها إذن القصر كان مؤلفا من طابقين وليس من طابق. وإذا صح هذا، فإن ذلك يعني ان الهندسة برمتها تحمل الكثير من العناصر التي لا وظيفة لها. السؤال الابرز الذي

يطرحه نجم هو ما هي الوظيفة من بناء مرتفع على النمط البازيليكي. بالطبع لا يمكن المقارنة بين القصر الكبير في عنجر والجامع الأموي، باعتبار ان الأخير هو مركز عبادة وكانت الارتفاعات مقصودة في الجامع الأموي. لا سيما وانه كان بالاصل كنيسة كما يشير الى ذلك المؤرخ المسعودي صراحة في كتابه »مروج الذهب ومعادن الجوهر«، وكما هو ثابت لدى الأثريين الذين تولوا دراسته. ثم ان الكنيسة كانت قبلا معبد وثني على اسم الاله جوبيتر. ثم ان الارتفاعات التي تم الحفاظ عليها تعطي المكان طابع الجلالة والرهبة الدينية، بينما القصر الكبير هو قصرملوكي وليس له الاجلال السماوي. أما القول ان بالقاعة كان طابقان، فلا يبدو أي وجود لدرج للصعود اليه. ثم هناك أسئلة إضافية تتعلق بالاقواس المجموعة التي إذا كان يتوسطها سقف فانه سيغطي أكثر من نصف النوافذ المقوسة الظاهرة على الواجهة الكبرى الشمالية. وهذا لا يعقل. فاما ان هذه النوافذ قد رممت بشكل غير مطابق للواقع الأساسي واما مكان السقف في غير محله. والافتراض الأخير احتماله ضعيف جدا في حال افتراض وجود سقف أول، كما يقول نجم في دراسته عن عنجر. يطرح نجم أسئلة أخرى بالنسبة الى العضاضتين الركيزتين اللتين تحملان آخر قوس من كل جهة في القاعة الى الشمال. فهاتان الركيزتان مكونتان من تعاقب الطوب الفخاري والحجر المتوسط المصقول. وإذا نظرنا الى جانبي الباب المجاور لهما، نراهما منفذين من الحجر الأكبر نسبيا ومن دون الطوب الفخاري. وإذا نظرنا الى ركائز الأقواس في صحن القصر الصغير مثلا نراها منفذة من الحجارة الكبيرة غير المتعاقبة مع الطوب الفخاري، تماما كركائز، أقواس الأروقة على جوانب الطريقين. فلماذا هاتين الركيزتين مختلفتان عن الأخريات؟ مع العلم ان قوة حمل هكذا ركيزة أضعف من الأخريات، بسبب ضعف الطوب الفخاري والطين الذي يفصل بين طبقاته، خصوصا وان الطين مادة يمكن ان تصبح ميكانيكية أي متحركة مع مرور الزمن نسبة الى صلابة الحجر. إلا إذا كان المعماري قد اعتبر قلة القوة المحمولة في هذا المكان، فقرر استكمال الحائط من دون ركيزة مغايرة. وأسئلة نجم لا تنتهي فالركيزتان اللتان أشار إليهما ترتبطان بنافذتين مغلقتين وراءهما على الواجهة الشمالية الكبرى. اذن لماذا قرر المعماري إنشاء نافذتين ثم اغلقهما على جانبي باب المدخل؟ هل للحفاظ على إيقاع ابعاد النوافذ من الخارج، علما عندها انه لا لزوم لهما. طالما ان الضوء مؤمن من النوافذ المفتوحة. ولماذا لم يتبع الشكل ذاته في توزيع النوافذ في الطابق العلوي إذا ما كان هناك من طابقين. الدراسة التي وضعها نجم عن موقع عنجر تحمل الكثير من الأسئلة وهي تضع عملية الترميم التي أعدها المهندس كليان عام 1960 بوجود الأمير موريس شهاب أمام علامات استفهام وشكوك، لا

سيما وان الأسئلة التي يثيرها تؤدي الى انكشاف الأخطاء في الترميم. اذ يبدو ان كليان قصد من خلال الترميم تحويل القصر الى مجرد قناطر مرتفعة لضمان رؤية مختلفة، لا اساس لها. خلال جولاته في عنجر لم يقتصر نجم على ما ذكرناه حول القصر الكبير. إذ تبين له مثلا وجود كنيسة في المدينة وهذه لم ترد على خريطة وزارة السياحة. وهذه مسألة على درجة بالغة من الأهمية وهذه تثير اسئلة كثيرة حول تاريخ بنائها. بالطبع هناك أكثر من حقيقة علمية تحتاج الى جلاء في الموقع، لا سيما إذا ما تم الانتقال من هذا الاعتراض الجوهري الى الملاحظات التدقيقية على صعيدي الأعمدة والزخرفة. فالأعمدة مثلا يبدو انها أحضرت من أماكن قريبة. وكان المعماريون يحتاجون إليها بأطوال مختلفة، مما دفعهم الى إعداد تيجان وقواعد ذات أطوال متباينة. أما الزخرفة فإنها تحمل سمات المرحلة الأولى من العصر الأموي، إذ هناك نقوش لعنقود عنب مما يعني شيوع زراعة العنب وبالتالي شرب الخمر، ثم هناك صور لأوراق العنب. أما المشكاة على جانب القصر الكبير لجهة الداخل، فإنها إضافة الى صور جمال فانها تحوي صورا لأوراق وأغصان كرمة، وهذه مشهورة ومعروفة في النقوش الفارسية والرومانية والبيزنطية. يلح نجم على تأثر نقوش عنجر بما يشابه من نقوش في منطقة سوريا الشمالية خلال تلك المرحلة. لكن الأهم برأيه هو ضرورة إعادة تقديم ما تعبر عنه كل الجماليات التي تزخر بها المدينة للسائح والمشاهد بما ينزع الروتين والرتابة التي باتت مألوفة، من خلال إطلاق الإثارة عند السائح، دون الوصول الى إقحامه في مسائل هندسية معقدة. يطرح نجم ومن خلال عمل يدوي وعبر مساعدة محدودة من بعض الأشخاص وعبر الاستعانة بالكمبيوتر الى تصحيح موقع عنجر، ويرى ان ذلك لا يتطلب كلفة كبيرة. ويرى ان إسناد هذه المهمة الى بعثات خارجية يعني شكوكا بالمهندسين والأثريين اللبنانيين، فضلا عن انه يتطلب كلفة لا طاقة للبنان عليها في ظل ظروفه الاقتصادية. وختاما يدعو وزير الثقافة ومدير عام الآثار الى رصد كلفة لإعداد دراسة عبر الكفاءات المحلية التي تستطيع ان تحقق إنجازا علميا مما يرسخ بقاءها في لبنان، ويعيد تصحيح إعمار اثر لا مثيل له، باعتبارها مدينة أموية كاملة، عربية وان كانت تحمل أيضا بصمات بيزنطية ورومانية وفارسية.

الكلمات الدالة

نجم نبيل | لبنان | المواقع الاثرية | عنجر | الآثار | الترميم